العوامل الثقافية لبناء الدول
نظرة نقدية معاصرة

الأستاذ الدكتور/ جمال رجب سيدبي

نائب رئيس جامعة السويس

مصر

ليس ثمة شك أن هناك عوامل مختلفة تتضافر في تكوين المواطن الصالح، الذي يلبي أشواق الوطن ويحقق أهداف المجتمع الذي يعيش فيه، ولا يمكن إقامة الدولة بدون المواطن الناضج نفسيًّا وفكريًّا واجتماعيًّا، ولن يستطيع أن يتمكن من هذا الدور بدون فهم سديد لمفهوم الثقافة، ولعل هذا الحديث يدفعنا إلى بيان مفهوم الثقافة.

يذهب بعض المفكرين إلى تعريف الثقافة بأنها: مجموعة من الصفات الخُلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته، وتصبح -لا شعوريًّا - العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه، فهي على هذا التعريف: المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته.

وهذا التعريف الشامل للثقافة هو الذي يحدد مفهومها ، فهي المحيط الذي يعكس حضارة معينة، ويضم بين دفتيه فلسفة الإنسان وفلسفة الجماعة، أي: مقومات الإنسان ومقومات المجتمع، مع أخذنا في الاعتبار ضرورة انسجام هذه المقومات جميعًا في كيان واحد، تُحْدِثه عملية التركيب التي تجريها الشرارة الروحية عندما يؤذن فجر إحدى الحضارات [1].

وهذا الطرح يقودنا إلى تساؤلات عدة، منها: ما أهم العوامل التي ينبغي أن تتضافر في

بناء الشخص لبناء الدولة البناء الحضاري الذي يسهم بطبيعة الحال في مسيرة الدفعة الحضارية التي يشهدها العالم من حولنا شرقًا وغربًا ؟ إن هناك مجموعة عوامل متشابكة ومتفاعلة من أجل البناء المعرفي والثقافي؛ لبناء الشخصية الإيجابية والمتوازنة والتي تتعايش مع المجتمع وتتفاعل فيه ويتفاعل فيها، ويمكننا أن نشير إليها فيما يلي:

١- الدين وعلاقته بالنظرة الأبستمولوجية (المعرفية):

اشتهر تعريف الدين عند الإسلاميين -كما يقول العلاّمة محمد عبد الله دراز - بأنه: وضع إلهي سائر لذوي العقول السليمة باختيارهم إلى الصلاح في الحال والفلاح في المال، أو يمكن القول: الدين وضع إلهي يرشد إلى الحق في الاعتقادات، وإلى الخير في السلوك والمعاملات.

أما في النظرة الغربية فلهم في ذلك تعريفات شتى، يمكن أن نشير إلى نماذج منها، مثلاً: يقول "سيسرون" ، في كتابه (عن القوانين): الدين هو الرباط الذي يصل الإنسان بالله.

ويقول " كانط" في كتابه (الدين في حدود العقل): الدين هو الشعور بواجباتنا؛ حيث كونها قائمة على أوامر إلهية.

ويقول "روبرت سبنسر" في كتابه (المبادئ الأولية): الإيمان بقوة لا يمكن تصور نهايتها الزمانية ولا المكانية، هو العنصر الرئيس في الدين.

ويقول "تايلور" في كتابه (المدنيات البدائية) : الدين هو الإيمان بكائنات روحية.

ويقول "ماكس ميلر" في كتابه (نشأة الدين ونموه): الدين هو محاولة تصور ما لا يمكن تصوره، والتعبير عما لا يمكن التعبير عنه، هو التطلع إلى اللانهائي، هو حب الله [٢]. وما نحب أن نشير إليه أن ظاهرة التدين موجودة في الثقافات المختلفة، وهي مع اختلاف مفهومها وتصوراتها تسمى دينًا، سواء أكانت ديانات سماوية منزلة أو ديانات وضعية، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾[٣].

٢- أصول النزعة الدينية في النفس البشرية:

إن الأزمة التي يعانيها إنسان العصر تكمن في تمسُّكه بحدود الحس أو النظرة المادية أو الحسية الخاصة؛ ولذلك فإن هذه النظرة قد أبعدت الإنسان عن أشواقه النفسية الحقيقية، وأدت إلى غربته عن واقعه؛ ومن ثَمَّ التخلف عن تحقيق الأهداف العليا للأوطان، حتى وإن ظهر بريق يلمع بشيء من المدنية والتقدم الحضاري.

إن الإيمان بالغيب نزعة بنت الغريزة والجبلة، والتنكر لها نكسة في فطرة الإنسان، ترده إلى مستوى الحيوان الأعجم ، ولا نقول إلى مستوى الطفولة الغافلة، فإن كثيرًا من الأطفال ذوي الفطر السليمة لا يقنعون بالأمر الواقع المشاهد، ولا يقفون في تعليله عند حلقة من حلقات أسبابه وغاياته القريبة؛ بل يصعدون دائمًا إلى أسبابه الأولى، ويسترسلون في تعرف نتائجه الأخيرة ، فهذه صورة مصغرة من تلك النزعة الفكرية الإنسانية التي هي أبدًا في حركة وتقدم(٤).

إن هذا الشوق إلى الأزلي الأبدي، وهذا الطلب الحثيث للكلي اللانهائي، له دلالتان عميقتان:

إحداهما: دلالته على مطلوبه، لا كدلالة الحركة القسرية على مصدر جاذبيتها كما يقول أرسطو؛ بل كدلالة الأثر على صانعه، أو الخاتم على طابعه حسب تعبير ديكارت.

وثانيهما: دلالته على أن في الإنسان عنصرًا نبيلاً سماويًّا، خُلق للبقاء والخلود وإن تناساه الإنسان وتلهى عنه حينًا (٥).

التدين إذًا ـ ولاسيما ـ في أديان التوحيد والخلود، عنصر ضروري في الإنسان، فبه وحده يجد العقل ما يشبع نهمه، ومن دونه لا يحقق مطامحه العليا.

٣- التدين واحترام القانون:

ليس على وجه الأرض قوة تكافئ التدين أو تدانيها في كفالة احترام القانون، وضمان تماسُك المجتمع، واستقرار نظامه، والتئام أسباب الراحة والطمأنينة فيه.

السر في ذلك أن الإنسان يمتاز عن سائر الكائنات الحية بأن حركاته وتصرفاته الاختيارية يتولى قيادتها شيء لا يقع عليه سمعه ولا بصره، ولا يوضع في يده ولا عنقه، ولا يجري في دمه ولا يسري في عضلاته وأعصابه، وإنما هو معنى إنساني روحاني، اسمه الفكرة والعقيدة، ولقد ضل قوم قلبوا هذا الوضع، وحسبوا أن الفكرة والضمير لا يؤثران في الحياة المادية والاقتصادية بل يتأثران بها، وهذا الرأي الماركسي – هو قبل كل شيء– نزول بالإنسان عن عرش كرامته، ثم هو تصوير مقلوب للحقائق الثابتة المشاهدة في سلوك الأفراد والجماعات في كل عصر ، فلكَيْ يختار الناس أن يحيوا حياة مادية لا نصيب فيها للقلب ولا للروح، لا بد أن يقنعوا أنفسهم بادئ ذي بدء بأن سعادتهم هي في هذا النوع من الحياة ، فالإنسان مقود أبدًا بفكرة صحيحة أو فاسدة، فإذا صلحت عقيدته صلح فيه كل شيء، وإذا فسدت فسد كل شيء [٦].

٤- التدين الوسطي المعتدل:

إن التدين الوسطي المعتدل هو الطريق الصحيح لإقامة الدول، فالفرد لا يعيش بمعزل عن المجتمع؛ بل يتفاعل فيه، كما أن المنهج الوسطي يجمع بين المثالية والواقعية، وبين الأصول أو الثوابت والمتغيرات ، وبين التراث والتجديد، وبين العام والخاص، فالتعادلية أو التوازن هو القانون الذي يحكم حركة الحياة ويؤدي إلى نماء المجتمعات وتطور الأمم.

٥- التكامل بين الأصالة والمعاصرة:

ليس ثمة شك أن قضية " الأصالة " و " المعاصرة " من القضايا المهمة والشائكة عند المسلم المعاصر، فمنذ بداية القرن الماضي وما زال يتردد في الأوساط الثقافية والعلمية الحديث عن هذه القضية؛ بل لا نبالغ إذا قلنا: إنها قضية المسلم المعاصر، خاصة بعد أن تبلورت هذه القضية على بساط الفكر.

إن المتأمل في هذين المفهومين " الأصالة " و " المعاصرة " سيتضح له أنهما إشكالية حضارية في الفكر الإسلامي، وتتضح الإشكالية بصورة محددة كأطروحة فكرية إلى أي

المفهومين نأخذ ونسير؟ هل ننحو تجاه الأصالة؟ أم ننحو تجاه المعاصرة؟ أم نمزج ما بين هذا وذاك، أم نترك الأصالة لنعيش بالمعاصرة لنواكب حضارة العصر؟ كل هذه الأسئلة طرحها مفكرو العالم العربي والإسلامي، ومازالت أطروحة فكرية، ونعتقد أنها ستظل كذلك ، كما يعود الاهتمام بطرح القضية لإيماننا أنها لم تحسم بعد، ومازالت تشغل بال الشباب المسلم خاصة والمثقف بشكل عام.

لعل السؤال الذي يطرح نفسه على ساحة البحث هو: كيف السبيل إلى فكر أصيل ومعاصر؟ وللإجابة على ذلك نذكر أمرين:

أولاً: إن الأصالة تمثل ما خلَّفه لنا الأقدمون من علم وفكر وفنون وآداب من نتاج الحضارة الإسلامية ممثلة في عقيدتها، فالحضارة الإسلامية تركت لنا تراثًا كبيرًا خلال تاريخها الطويل، لا شك في ذلك، ولكن كيف يمكن الإفادة من هذا التراث الضخم؟ هل بتحقيق المخطوطات والمؤلفات في مختلف العلوم والفنون؟ أم أن هناك وسيلة أخرى؟.

إن تحقيق المخطوطات بالمناهج العلمية ضرورة لا سبيل للحياد عنها؛ لكي نخرج الكنوز من بطون المؤلفات التراثية القابعة في المكتبات في شتى أنحاء العالم شرقًا وغربًا.

على أنه بجانب ذلك لا بد من تحديث التراث لغة وأسلوبًا حتى يساير لغة العصر وإيقاعه، وحتى يستطيع المتخصص المسلم استيعابه فضلاً عن القارئ المثقف، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يجب أن نأخذ من التراث ما يتفق مع منطق العصر وقضاياه، ونترك القضايا والمفاهيم التي عفا عليها الزمن.

إن تراثنا مليء بالدرر والكنوز التي يجب أن نفتش عنها، من هنا قلنا: إنه يجب أن نأخذ بالمناهج العلمية لتحديث التراث وتنقيته من الشوائب، والإفادة منه لمواكبة العصر.

إن بعض تجار التراث سماسرة العلم يعتقدون أن تحقيق التراث هو طبع المؤلفات من الورق الأصفر إلى الورق الأبيض، والتراث والعلم منهم براء، إنما لابد من منهج علمي يخدم الإحياء والتحقيق.

إننا لو نظرنا إلى الإسلام لوجدنا أنه منهج حياة متكامل ونظرة شمولية للحياة، وعلى هذا انطلق المفكرون المسلمون في رؤيتهم للحياة من تصور شمولي متكامل للكون والحياة والإنسان، لم يعرفوا "دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله" ؛ فكانت جل أعمالهم معبرة عن هذه النظرة الشمولية فكان ابن رشد عالمًا وطبيبًا وفقيهًا وفيلسوفًا؛ وتراثه خير شاهد على ما نقول، وكذا الإمام أبو حامد الغزالي كان فقيهًا ومتكلمًا ومتصوفًا وأخلاقيًّا، وابن سينا، وابن الهيثم، وغيرهم كثير.

كان العالم منهم دائرة معارف علمية، ويغلب على ظننا أن هذه النظرة الشمولية للكون والحياة والإنسان التي طبقها المفكر المسلم في مجال حياته مستوحاة من القرآن الكريم: ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا﴾[٧].

ثانيًا: إن المعاصرة تكمن في كل ما أبدعته الحضارة المعاصرة في التقنية العلمية وفي مختلف الآداب والفنون، وليس بخاف أن هناك من يفضل نبذ الحضارة الغربية المعاصرة حفاظًا على أصالتنا وهويتنا المميزة، وعدم الذوبان وتشتت الهوية، وهذا الرأي يجانبه الصواب.

إن الحضارة الغربية بما أبدعته في مجال التقنية العلمية يجب على المسلم المعاصر استيعاب كل ما أنتجته في ميدان العلم، فالعلم لا وطن له كما يقولون، ولا يشك شاكٍ في أن ما أبدعته هذه الحضارة الآن ما هو إلا بفضل المناهج العلمية الإسلامية عند مفكري الإسلام الأقدمين، والتي استوعبتها هذه الحضارة من مناهج الإسلاميين في الأندلس، بينما تخلَّف المسلمون عن ركب الحضارة العلمية التجريبية طوال عدة قرون.

إننا لا يصح أن ننبذ تراثنا وراء ظهورنا كالطفل اللقيط لا يعرف أبوةً له ولا جذورًا، وأصبحنا مفقودي الهوية، ولا يصح أن نظل أسرى التغني بالتراث فنتخلَّف عن الركب ونصبح في ذيل القافلة ؟ بل لابد أن نستفيد من التراث في كل ما يتفق مع النظرة الإسلامية الشمولية، وأن نوظف التراث لخدمة قضايانا المعاصرة، وأن ننفتح على كل التيارات والثقافات العلمية لا بقصد محاكاتها، لكن برؤية تقنية نأخذ ونستوعب ما يتفق مع قيمنا الإسلامية وروحنا الحضارية.

إن القيم الإنسانية العالية لا تتناقض مع القيم الإسلامية؛ لذا فما المانع أن نستفيد من نتائج الآخرين وأن نترك ما لا يتفق مع حضارتنا الإسلامية أو أن نوظفه داخل النسق الإسلامي بما يتفق مع النظرة الإسلامية وتصورنا الإسلامي.

٦- النسق الأخلاقي في الثقافة الإسلامية:

تمثل الأخلاق في المنظور الإسلامي أساسًا متينًا لإقامة الدولة المتماسكة، ولطالما أكد علماء الإسلام على هذه الحقيقة، فإذا كانت أفعال الإنسان جميلة ومحمودة ومقبولة عقلاً وشرعًا سُمي صاحبها بذي خلق حسن، أما إذا كانت أفعاله قبيحة سُمي بذي خلق سيئ [٨].

ولقد أكد المسلمون على نظرية الوسط الأخلاقي ، ويعزو د/ محمد عبد الله دراز نظرية الوسط الأخلاقي عند أبي حامد الغزالي إلى المصدر الإسلامي فيقول: لعل من المفيد أن نسجل تقاربًا بين النظريتين، ولكننا نرى على وجه التحديد أن مسألة معرفة ما إذا كان يوجد أو لا يوجد بينهما بنوة تاريخية أمر واضح؛ فالدنيا كلها تعرف أن القرآن الذي استمد منه المسلمون أصول نظريتهم لاحق لنظرية أرسطو ، ولكن الدنيا كلها تعرف من ناحية أخرى أن من الخطأ البين تاريخيًّا القول بفرض حدوث استعارة ، فإن الصلة بين الفكر الإسلامي والفلسفة الهلينية لم تبدأ في الواقع إلا بعد قرنين من ظهور الإسلام [٩].

وعندما نتوقف عند نصوص أبي حامد الغزالي في ثنايا مؤلفاته، نجد أن فكرة الوسط تختلف في معالجتها عن أرسطو، فيرى: أن من فقد الغضب عجز عن رياضة نفسه؛ إذ لا تتم الرياضة إلا بتسلط الغضب على الشهوة؛ حتى تغضب على نفسه عند الميل إلى الشهوات الخسيسة، ففقد الغضب مذموم، وإنما المحمود غضب ينتظر إشارة العقل والدين؛ فينبعث حيث تجب الحمية وينطفئ؛ حيث يحسن الحلم، وحفظه على حد الاعتدال هو الاستقامة التي كلف الله بها عباده، وهو الوسط الذي وصفه رسول الله ﷺ ؛ حيث قال: " خير الأمور أوسطها " [١٠].

فمن مال غضبه إلى الفتور حتى أحس من نفسه بضعف الغيرة وخسة النفس في احتمال الذل والضيم في غير محله؛ فينبغي أن يعالج نفسه حتى يقوي غضبه، ومن مال غضبه إلى

الإفراط حتى جرَّه إلى التهور واقتحام الفواحش؛ ينبغي أن يعالج نفسه لينقص من ثورة الغضب ويقف على الوسط الحق بين الطرفين، فهو الصراط المستقيم، وهو أدق من الشعرة وأحد من السيف، فإن عجز عنه فليطلب القرب منه، قال تعالى:﴿ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِ ﴾ (١١).

ويعطي أبو حامد الغزالي مفهوم الوسط الأخلاقي مضمونًا إسلاميًّا، بإلقاء الضوء بصورة أكثر وضوحًا، فيقول: "ولما كان الوسط الحقيقي بين الطرفين في غاية الغموض؛ بل هو أدق من الشعر وأحدّ من السيف، لا جرم أن من استوى على هذا الصراط المستقيم في الدنيا جاز على مثل الصراط في الآخرة، وقلما ينفك العبد عن ميل عن الصراط المستقيم؛ أعني الوسط، حتى لا يميل إلى أحد الجانبين فيكون قلبه معلقًا بالجانب الذي مال إليه؛ وذلك لا ينفك عن اجتياز النار وإن كان مثل البرق، قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا * ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ﴾(١٢)، أي : الذين كان قربهم إلى الصراط المستقيم أكثر من بعدهم عنه(١٣).

و يطبق أبو حامد الغزالي نظريته في الوسط الأخلاقي، على سائر فضائل النفس (كالشجاعة) مثلاً، فهي فضيلة للقوة الغضبية لكونها قوية، ومع قوة الحمية منقادة للعقل المتأدب بالشرع في إقدامها وإحجامها، وينبغي أن نشير إلى أن أبا حامد الغزالي يهتم بالناحية العملية، ولم يقتصر دوره على الأخلاق النظرية، حيث إن الأخلاق عند أبي حامد الغزالي لا تقتصر على كونها مجرد دعوة نظرية إلى اتباع السلوك الفاضل؛ بل إنها في حقيقتها فعل خلقي.

إن الوسط الأخلاقي عند أبي حامد الغزالي مبني على أنه لا يوجد ثمة تناقض أو نزاع بين الوحي الذي هو من الله، والعقل الذي هو من الله أيضًا، وإنما يكمل كل منهما الآخر، ولا يمكن الاستغناء بأحدهما عن الآخر، فالعقل والنقل يسيران في القرآن الكريم معًا جنبًا إلى جنب، وهذا هو ما يؤخذ من قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾(١٤).

كلاهما في نهاية الأمر مرده إلى الله؛ ولهذا فالأحرى أن لا نعتبرهما مصدرين مختلفين للإلزام الخلقي، وإنما نراهما مستويين لمصدر واحد.

لقد عالج الغزالي الوسط الأخلاقي على ضوء فهمه للدنيا والآخرة، أو على حد تعبيره (الاستقامة في الدنيا طريق الاستقامة في الآخرة).

وبهذا يمكننا القول: إن قانون الأخلاق في الإسلام لا يعرف تلك النظرة الضيقة للأخلاق الدينية على النحو الذي يقول به الباحثون الغربيون؛ فالأخلاق في الإسلام ليست أخلاقًا أحادية الجانب – كما هو الشأن في الكثير من النظريات الأخلاقية – وإنما هي أخلاق تمتاز بشمولها وكمالها الذي لا يجاريه أي كمال؛ حيث تضم تحت جناحيها العناصر الفردية والاجتماعية والإنسانية والإلهية في تناسق رائع لا مثيل له في أي دين، أو في أي مذهب أخلاقي.

٧- النهضة العلمية وبناء الدولة:

ليس ثمة شك أن النهضة العلمية هي أساس التقدم والرقي للأمم والمجتمعات، والأمة الإسلامية التي اختصها الله بخير أمة، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [١٥]، عليها مسئولية كبيرة في الأخذ بأسباب النهضة والتقدم في عالم العلم والحضارة، ولعل من أهم الأسئلة التي تطرح نفسها على العقل الإسلامي المعاصر، ما مقومات الوثبة الحضارية للحاق بركب التقدم العلمي المذهل؟ خاصة أن مساحة الزمن باتت تختزل شيئًا فشيئًا ؛ حيث يقدر العلماء ما أنتجته البشرية خلال الثلاثة عقود الماضية بقرابة ما أنتجته على طوال قرن من الزمان، لقد ظهرت ثورات علمية متوالية: ثورة المعلوماتية وتكنولوجيا المعلومات، وثورة الاتصالات ، وأضحى احتكار المعرفة من مقومات القوة في دنيا العلم والحضارة؛ من هنا نقول: إننا كأمَّة زكَّاها رب العالمين أنها خير الأمم ، ينبغي أن نفتش في مشكلاتنا الحقيقية؛ لكي نستأنف مسيرتنا الحضارية في العالم، وذلك من خلال عدة مقومات، منها:

أ- الأخذ بسنن النجاح ؛ فمن حكمة الله في الكون أن الله سبحانه وتعالى أودع في هذا الوجود سننه وقوانينه، ومن يأخذ بأسباب التقدم ويعمل بسنن الله في كونه،

يُمكّنه الله من اكتشاف القوانين والمعرفة العلمية في كافة مجالاتها، ولقد دعانا القرآن الكريم إلى اكتشاف حقائق الأرض والسماء، قال تعالى :﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ [١٦]، أن النظر المطلوب هذا ليس هو النظر الساهي ، وإنما هو المتأمل الباحث عن الحقيقة المكاشف للقانون؛ ولهذا فنحن محتاجون إلى تربية تنطلق من رؤية الإسلام الحضارية، تربية توقظ العقل المسلم ، ولعل الخلل في المفاهيم هو الذي أدى إلى هذه النتائج الوخيمة في دنيا الواقع، فلو نظرنا إلى مفهوم " العلم " مثلاً لوجدنا أن البعض يختلط عليه الأمر، فالعلم بشطريه الديني والدنيوي مُطالب به المسلم، صحيح أن معرفة ما تصح به العبادة فرض أو واجب على كل مسلم، وأن معرفة العلوم الكونية فرض كفاية، أو بعبارة أخرى مسئولية تضامنية للأمة المسلمة جميعها، لدرجة أن بعض العلماء يرى أن فرض الكفاية إذا قصرت في إقامته الأمة يرقى إلى مرتبة الواجب .

ب- عوامل النهضة في واقعنا المعاصر؛ حيث إن المقدمات الصحيحة تؤدي إلى نتائج صحيحة، وأمة اقرأ مدعوة لتصحيح المفاهيم المغلوطة التي عششت داخل بعض العقول، فالأمور ينبغي أن تقدر بقدرها ، والحضارة أن نبث المفاهيم الصحيحة عبر مناهجنا التربوية والعلمية وإلا ضاع منا أول مَعلم من معالم الطريق.

إن علماء الإسلام عبر تاريخنا الحضاري الإسلامي تنبهوا إلى خطورة هذه الحقيقة، فعملوا على الاحتفاء بعلوم الدين والدنيا، فعلى سبيل المثال ابن رشد الحفيد الفيلسوف الذي اهتم بعلوم الدين- وله موسوعته الفقهية المعروفة " بداية المجتهد ونهاية المقتصد "، وكذا كان بارعًا في علوم الطب، وله كتابه: " الكليات في الطب"- كان يمثل العقلية الموسوعية التي توازن بين علوم الدين والدنيا؛ ولهذا أبدع علماء المسلمين في كافة ميادين العلم، وتاريخ العلم خير شاهد على دور العقل الإسلامي في النهضة الحضارية، بعبارة أخرى كانوا منتجين للعلم والمعرفة لا مستهلكين لهما.

ج- رعاية الموهوبين، وهذا الأمر يتطلب منا إستراتيجية جديدة للتعامل معهم، فالثروة البشرية هي ثروة الأمة الحقيقية، ولابد من إنشاء مصادر التمويل لرعاية الموهوبين في

عالمنا الإسلامي وتعهدهم بالرعاية حتى يقدموا لأوطانهم عصارة جهدهم، إن أمة اقرأ خليقة بأن ترى شبابها من العلماء النابهين ، وعندما نفكر في هذا الأمر بلغة العقل والمنهج فسوف نسد المنافذ على هجرة العقول إلى خارج أوطاننا .

د- هناك علاقة جدلية بين إبداع الإنسان الفكري والعلمي والمناخ الذي يعيش في ظله، وحري بأمتنا التي أثبتت جدارتها على مَرِّ التاريخ أن تستعيد دورها الحضاري في ظل الطفرة العلمية الحضارية التي نلحظها، ونحن واثقون في الله سبحانه وتعالى أن الغد سيكون أفضل من اليوم بإذن الله، وأن الله سيُمكّن لهذه الأمة في عالم الدين والدنيا؛ شريطة أن نأخذ بمنهاج ديننا وسنة نبينا محمد ﷺ على الوجه الصحيح الذي يواكب مقتضيات العصر ومتغيراته.

أعتقد أن ما قدمنا آنفًا من عرض لمفهوم الثقافة في المجتمع الإسلامي، وكذلك مفهوم الدين بوصفه قوة دافعة لإقامة المجتمعات، بالإضافة إلى النسق الأخلاقي الوسطي المتوازن، والاحتفاء بالنهضة العلمية لمواكبة الوثبة العلمية التي يشهدها العالم الآن؛ كل هذه العوامل ينبغي أن تتضافر جميعها جنبًا إلى جنب من أجل إقامة الدولة المعاصرة الراشدة في ضوء فقه العصر.

الهوامش:

(١) مالك بن نبي، مشكلة الثقافة ، ص ٧٤.

(٢) أنظر : د. محمد عبد الله دراز، الدين ، دار القلم ، ص ٣٧.

(٣) الكافرون: ٦.

(٤) د. محمد عبد الله دراز، الدين ، ص ٣٧.

(٥) المرجع السابق، ص ٩٧.

(٦) المرجع السابق، ص ٩٩.

(٧) القصص : ٧٧ .

(٨) د. حسن الشرقاوي، نحو الثقافة الإسلامية ، ص ٢٧٥ .

(٩) محمد عبد الله دراز ، دستور الأخلاق في الإسلام ، ص ٦٧.

(١٠) أخرجه البيهقي في الشعب مرسلاً.

(١١) النساء : ١٢٩ .

(١٢) مريم : ٧١ .

(١٣) إحياء علوم الدين ، أبو حامد الغزالي، دار المعرفة- بيروت ،٣/٦٤،٩٣.

(١٤) الملك : ١٠.

(١٥) آل عمران : ١١٠.

(١٦) ق : ٦ .